تناقضات

أصبت بوعكة صحيّة قبل أسبوع ممّا دفعني إلى زيارة الطّبيب بعد أن رأيت أنّه لم يطرأ أيّ تحسّن على صحتي. دخلت إلى الطّبيب، وهو من معارفي القديمين الذي رحّب بي بدوره أجمل ترحيب فهو رجل مثقّف ومتعلّم ولطيف جدًا.

خلال تبادلنا لأطراف الحديث، رنّ هاتف الطّبيب الشّخصي فاستأذنني بالرّد على الهاتف.

فجأة تغيّر وجه الطّبيب وعبس وقطب حاجبيه. "سآتي على الفور. انتظروني!" قالها بسرعة وهو ينظر إلى ساعته الثّمينة.

- "ربع ساعة بكون عندكم". أغلق الطّبيب هاتفه مسرعًا.
- "اعذرني أنا مضّطر أن أغادر العيادة، وقعت مشكلة مع حمولتنا وعليّ أن أذهب لمساعدتهم وتقديم الدّعم لهم."
- "إن شاء الله خيرٌ. هل هناك حاجة إلى دعم طبي؟! هل يوجد جرحى؟!" قلت ذلك مُبديًا اهتمامي وقلقي الشّديدين.
- "لا لا ليس هذا الدّعم، سأذهب لمساندتهم ودعمهم في شجار مع حمولة ثانية وهم بحاجة لي كفرد من أفراد الحمولة."

استغربت كثيرًا فكيف لشخص متعلّم ومثقّف مثله، يمتاز بالرّقّة واللطافة أن يقدّم دعمًا في شجار عائلي.

- "هذا غير ملائم لك يا دكتور، لم أتوقّع ذلك منك".

قلتها وأنا أنظر إليه بحسرة وألم.

- "بكرا بتصير معي مشكلة ما بلاقي حدا يوقّف معي. قل عنّي ما تشاء هذا هو الواقع الذي نعيشه".

قالها مُغادرًا عيادته تاركًا إيّاي أتخبّط بأفكاري وتساؤلاتي.

حياتنا مليئة بالتّناقضات. أصلًا كلّنا تناقضات في تعاملنا اليومي. نعيش في دوّامة التّناقضات هذه على مختلف المستويات والصّعد الحياتيّة.

في هذه الدوّامة المحيّرة تتناقض أقوالنا مع أفعالنا في الكثير من المواقف والسلوكيّات الشخصيّة والحياتيّة.

ذكّرني هذا الحدث بكتاب "سيكولوجية الجماهير" للمؤلف الفرنسي "غوستاف لوبون"، الذي تم نشره لأول مرّة في عام 1895، في مجال دراسات السّلوك الاجتماعي والتّأثير النّفسي للجماهير على الأفراد. فكرة الكتاب أنّ الأفراد عندما يتجمّعون في جماهير يصبحون مختلفين تمامًا في سلوكهم عمّا يكونون عليه كأفراد. هذه الرّوح الجماعيّة تعزّز من الحماسة والعاطفة وتمكّن الجماهير من القيام بأعمال لا يمكن للأفراد القيام بها بشكل فردي.

المفروض أنّ الدّكتور من الأشخاص المتعلّمين والمتزّنين الذين يحكّمون العقل في قراراتهم وخطواتهم، لكنّهم يتحوّلون فجأة إلى أشخاص آخرين، لا نعرفهم، حتّى نظن أنّهم يعودون في أصولهم إلى أشرس القبائل الهمجيّة التي لم يتم اكتشافها بعد في غابات الأمازون.

كثيرًا ما نواجه هذه الظّاهرة عند طلّابنا في المدارس وفي الجامعات، حيث نعمل جاهدين على تربيتهم ضد العنف وعندما تستبشر خيرًا بهم، نصادف "طوشة" في العائلة تسحب البساط من تحت أرجلنا ونفقد كلّ ما فعلناه بجدّ وجهد وعرق.

لا يقتصر الأمر على ذلك، بل أننا نفعل أكثر من ذلك، فنشهد زورًا، ونكذب ونفتري وندافع عن الظّالم ونغيّر مبادئنا ومواقفنا وننطق بالباطل وندافع عنه.

وفي ظلّ ما نعيشه من تناقضات دعونا ننهي مدوّنتنا بطرفة:

دفن رجل كلبًا في مقابر النّاس، فشكى النّاس أمره للقاضي. فاستدعاه القاضي وسأله عن الأمر. فقال الرّجل نعم، لقد أوصاني الكلب بذلك فنفذت وصيّته.

قال القاضي: وهل تستهزئ بنا وتدفن كلبًا في مقابر النّاس؟

قال الرّجل: وقد أوصاني الكلب أيضًا أن أعطي ألف دينار للقاضي.

قال القاضي: رحم الله الكلب الفقيد.

فتعجّب النّاس من موقف القاضي وكيف غيّر رأيه في الحال.

فقال لهم القاضي: لا تعجبوا فقد تأمّلت في أمر هذا الكلب الصّالح فوجدته من نسل كلب (أهل الكهف)...

رحم الله أمواتنا وأمواتكم

أ.أيمن جبارة